

العرب والوعي التاريخي

د. أمينة بيطار

إن البحث في علم التاريخ عند العرب، بحث هام وشائق. وقد كتب فيه عدد من المؤرخين العرب والمستشرقين، أجاد بعضهم، وأخفق آخرون في تحليل بعض النقاط. كما أطلال بعضهم في البحث وأكثر من الأمثلة؛ مما جعل القارئ يضيع في ثنانيا الكتابات. وفي هذه الدراسة المختصرة لعلم التاريخ عند العرب المسلمين، حاولت أن ألمم شعث البحث، وأعطي فكرة موجزة وواضحة عنه، دون أن أدعي الوصول إلى الكمال. عمل عدد كبير من المؤرخين القدامى والمحدثين على وضع تعاريف للتاريخ، تلاقوا في نقاط، وانفرد بعضهم في نقاط أخرى. وسأعمل جاهدة على ذكر أهم ما قيل في تعريف التاريخ.

يرى ابن خلدون المؤرخ العربي التونسي المشهور، أن التاريخ علم وفن في آن واحد. ويوضح الأسباب التي ارتكز عليها في رأيه، فيقول: «فإن فنّ التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشدّ إليها الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوق والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقوال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال»^(١) إذ هو في ظاهره لا يزد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى^(٢)... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعدو في علومها وخليق...». كما يتناول المقرئ تعريف التاريخ، فيقول: إن غرض التاريخ الإخبار عما حدث في العالم في الماضي^(٣). ويعرف السخاوي^(٤) التاريخ فيقول: «وأما موضوعه [أي التاريخ] فالإنسان والزمان ومسائله، أحوالها المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان». وأما هرنشو في كتابه «علم التاريخ»^(٥)، فيقول: إن التاريخ علم نقد وتحقيق، وهو تسجيل أو وصف أخبار الحوادث التي ألمت بالشعوب والأفراد. وأما الكافيجي، فيقول: وأما علم التاريخ فهو علم يبحث عن الزمان وأحواله، وعن أحوال ما يتعلق به، من حيث تعيين ذلك وتوقيته^(٦).

وهكذا يمكن القول إن المؤرخين أجمعوا على أن التاريخ علم منذ أن بدأت الدراسات الجادة حول التاريخ، كما أضاف بعضهم أنه فن. وإذا كانت الدراسات حول التاريخ قريبة العهد منا، فإن التاريخ من حيث هو سجل العصور الغابرة وديوانها الحافظ لأخبارها، قديم قدم اهتمام الإنسان إلى صناعة الكتابة^(١٧).

وفي الوقت الذي أكثر المؤرخون فيه من وضع تعاريف للتاريخ، فإن كثيرين اهتموا في البحث عن أصل كلمة تاريخ لغوياً وزمنياً. وبعد مناقشات طويلة، استقر رأي الغالبية العظمى على أن كلمة تاريخ عربية مأخوذة من اللهجة العربية الجنوبية، وأصلها تورخ^(١٨)، أي تعريف الوقت. وكان العرب قبل الإسلام يوقتون بالنجوم والأهلة، وينسأون الشهور ويكبسونها إلخافاً للسنه القمرية بالسنة الشمسية. وكانوا يبنون التأريخ على الليالي دون الأيام بخلاف العجم، فإنهم كانوا يبنونه على الأيام دون الليالي. وكانوا يؤرخون بالحوادث العظام والوقائع المشهورة، كعام الفيل وبناء الكعبة ونحوها. حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب، حين أمر الناس بالتأريخ من الهجرة. ومضى الأمر على ذلك حتى يومنا هذا^(١٩). وأول اثر لاستعمال التأريخ الهجري وصل إلينا في ورقة بردي يرجع تاريخها إلى سنة ٢٢ هـ^(٢٠).

ومهما يكن الأمر، فإن التاريخ من العلوم التي قدرها العلماء العرب حق قدرها. ورأوا أن فائدته كبيرة للكثيرين، ووجدوا أن دراسته وقراءته ضرورية للملوك والأمراء والقادة. وقد أوضح لنا الجاحظ ذلك فيما نقله لنا عن تقسيم المواد الثقافية من وجهة الفائدة النفعية لأصحاب المهن المختلفة، فقال: «علم الملوك النسب والخبر [يقصد التاريخ] وجل الفقه. وعلم التجار الحساب والكتاب. وعلم أصحاب الحرب درس كتب المغازي وكتب السير»^(٢١). كما أيقن العرب أن التاريخ مادة ثقافية هامة، لها وزنها واعتبارها في تنمية الإمكانات والمدارك. فإذا أراد الوزراء السيطرة على الخلفاء، منعوا عنهم كتب التاريخ لئلا يتثقفوا بها، ويتنبهوا إلى ألاعيب وزرائهم ورجال دولتهم. والأمثلة على ذلك كثيرة، تملأ كتب التاريخ. وسنتناول نصاً ذكره لنا ابن طباطبا^(٢٢)، أوضح فيه كيف عمل وزير الخليفة المكتفي على تزويد الخليفة بحكايات تلهيه وأشعار تطربه، وأبعد عنه كتب التاريخ لما في قراءتها من فائدة في إرشاده إلى الطريق المستقيم، ومساعدته على رسم الخطط الحكيمة للتخلص من العقبات. ومجمل الأمر أن الخليفة المكتفي طلب إلى وزيره أن يزوده ببعض الكتب، فطلب الوزير من بعض أنصاره أن يفعلوا ذلك تنفيذاً لإرادة الخليفة، على أن يعرضوها عليه قبل حملها لصاحب السلطان، وحين وقع اختيار هؤلاء النواب على بعض كتب التاريخ التي تتناول بعض ما جرى في الأيام السالفة من وقائع الملوك وأخبار الوزراء، كما تعرّض للسبل العديدة في استخراج الأموال، صاح الوزير فيهم قائلاً: «والله إنكم لأشد الناس عداوة لي. فقد حصلتم له ما يعرفه بمصارع الوزراء، ويرشده إلى طرق استخراج الأموال، ويعرفه خراب البلاد من عبارتها، ردوها، وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه وأشعار تطربه». كما مدح المقرئ التاريخ، فذكر بأنه من أجل العلوم قدراً، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطراً، لما يحويه من المواعظ والإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الديار، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقنتدي بها، واستعلام ماذم الفعّال ليرغب عنها أولو النهى^(٢٣).

العرب والوعي التاريخي

شغف العرب بالتاريخ، حتى أصبح شغفهم متوارثاً. وكانت معرفتهم بعلم التاريخ ساذجة كبقية معارفهم قبل الإسلام. ثم اكتمل على مرّ الزمن، حتى أصبح علماً من أجلّ علومهم وأعظمها شأنًا^(١٤). ويمكن القول إنه على الرغم من أن الأمية قد غلبت على العرب في جاهليتهم، إلا أنهم كانوا يتذكرون أيامهم في المحافل والمجالس والأسواق، ويصفون أحداثهم عن طريق الملاحم الشعرية. وكانوا يعتمدون في حفظهم هذا التراث على قوة ذاكرتهم. وكان غالبية ما يرددونه يتصل بنسبهم وذكر أمجادهم، والتغني بانتصاراتهم في الحروب وغيرها من الميادين التي تتصل بحياتهم أشدّ الاتصال^(١٥). وكان ينقص هذه الروايات ويجعلها أقرب إلى القصص منها إلى التاريخ التالف والسبك والتوقيت الدقيق، مع بروز العصبية بها، وكونها تمثل جانباً واحداً^(١٦).

ومها يكن الأمر، فإن روايات الأيام كانت لها أهمية تمثّلت في استمرارها في صدر الإسلام وفي أسلوها؛ مما أثر في بداية علم التاريخ عند العرب، وخاصة في الأوساط القبلية^(١٧).

ويبدو مما ذكر أن الفترة الجاهلية كانت فترة ثقافة شفوية، بل يمكن القول إن الكتابة التاريخية بالمعنى الحقيقي لم تكن موجودة مطلقاً حتى في المناطق العربية التي كانت على درجة متقدمة من الحضارة^(١٨). فعرب الجاهلية كانوا لغلبة الأمية عليهم يتذكرون أيامهم وأحداثهم عن طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار أو أخبار متفرقة عن آهنتهم وشؤونهم الاجتماعية ومآثرهم وغزواتهم وأنسابهم وتنظيمهم الاجتماعي ومثلهم. أما من نزل في حواضر الجزيرة، فقد تركوا لنا شيئاً من كتاباتهم وبعض أخبارهم التي لم يكن القصد منها التأريخ. لقد نقش أهل اليمن بالخط المسند على مبانيهم، لاعتبارات شرعية، لمّا من أخبار ملوكهم وشؤونهم العامة، يترّاح تاريخها بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن السابع الميلادي. وتسجل تلك الكتابات مختلف الفعاليات، كأعمال البر والتقوى، وتقديم الجزية، ومشاريع الري، وإنشاء الأسوار والتحصينات، والحملات العسكرية. ومع أن بعض هذه الكتابات دينية في طبيعتها، فقد سجل قسم منها الفعاليات البشرية، وخلّد لنا أعمالاً هامة، ونجد فيها في البدء طريقة مشوّشة لتأريخ الحوادث، ثم أدخل عليها فيما بعد سنة ١١٥ ق. م. تقويم ثابت؛ مما أدى إلى نظام ثابت للتأريخ. وهذا التطور في استخدام فكرة الزمن يوحى بوجود شيء من الفكرة التاريخية. وبالإضافة إلى ذلك فإن الهمداني يشير إلى وثائق ملكية، وسجلات حميرية، حفظت واستفيد منها فيما بعد. وإلى زبر أو وثائق وسجلات للأنساب حفظتها بعض الأسر والبطون^(١٩).

ويمكن القول إن الروايات اليمنية الموجودة في المصادر الأولى بمجموعها ذات طابع أسطوري، استمرت حتى ظهور الإسلام. فبالنسبة لتأريخ اليمن في القرن السادس الميلادي وصلتنا روايات مرتبكة، رواها كل من وهب ابن منبه (ت ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م) وعبيد بن شربة، عبارة عن قصص خيالية شعرية، مجّدت عرب اليمن، ونسبت إليهم أمجاداً في الحرب والصناعة واللغة والأدب، وحتى في الدين، ليدلّوا على أنهم سبقوا عرب الشمال في أمجادهم، أو أنهم لا يقلون عنهم في ذلك. وقد وردت هذه الروايات بأسلوب يشبه أسلوب قصص أيام العرب، مع نسبة أوفى من الشعر الموضوع لتقوية تأثير القصة^(٢٠). وبالإضافة إلى هذه الكتابات التي وجدت في اليمن،

قبل إنه كان لدى المناذرة كتب تحوي أخبار عرب الحيرة وأنسابهم وسير أمرائهم، وكانت محفوظة في كنائس الحيرة. كما أنهم كانوا يعرفون الكثير من الأخبار الفارسية. وقد استفاد بعض المؤرخين فيما بعد من هذه الكتب والأخبار في تأليفهم. ولكننا لا نجد ما يشير إلى أن عرب الحيرة كانت لديهم فكرة تاريخية واضحة^(٢١).

ويمكن تلخيص مصادر تاريخ العصر الجاهلي بما يلي:

(١) اعتمد عرب الجاهلية في تاريخهم على الرواية الشفهية، وخاصة فيما يتعلق بالأنساب. فقد كان أفراد كل قبيلة يحفظون أنسابهم ويتناقلها الأبناء عن الآباء. وكان أفراد القبائل يهتمون بهذا الأمر اهتماماً كبيراً لاهتمامهم ببقاء أنسابهم نقية، ولما لهذا من تأثير كبير على مكانة القبيلة بين أندادها من القبائل الأخرى. وقد أثرت هذه الحمية القبلية على صلب هذه الأخبار بصبغة المبالغة؛ فكانت القصص والأساطير عن القبيلة لها أصول أضيفت عليها زيادات لتجعل من هذه الأخبار مجالاً للفخر بها على القبائل الأخرى^(٢٢).

(٢) اهتمت كل قبيلة عربية بأخبار حروبها وانتصاراتها على القبائل الأخرى. وهو ما يعرف بأيام العرب. ونحت في رواية أيامها منحى الرواية الشفهية، سواء بالشعر أم بالنثر. وكانت رواية أيام العرب قصصية، فلم تُدرَس ضمن الأسباب والنتائج التاريخية، كما أنها لم تأخذ الزمن بعين الاعتبار. وتبعاً لذلك فلم يكن هناك تعاقب تاريخي في ذكر الأيام^(٢٣).

ويمكن القول إن روايات أيام العرب النثرية التي وصلت إلينا لا بد وأن يكون الخلط قد دخلها بسبب ضعف الذاكرة البشرية عن حفظ التفاصيل. أما الشعر الذي قيل في مناسبة من المناسبات، فعالمياً ما يميز بالمبالغة. فإذا بقي الشعر الذي قيل في مناسبة من المناسبات حتى العصور الإسلامية، يكون من العوامل المساعدة على بناء التاريخ الجاهلي بحذر وانتباه. أما إذا كان الشعر الذي قيل في هذه المناسبة قد ضاع، وابتكر أبناء القبيلة شعراً جديداً يدور حول الحادثة نفسها، فعنصر المبالغة والتحيز يسيطران عليه^(٢٤). وبذلك فإننا نرى أن روايات الأيام اختلطت فيها الحقيقة بالوهم، حتى إذا أراد الإنسان أن يعرف الصحيح من المزيف، وجب عليه أن ينقد كل وثيقة على حدة^(٢٥).

(٣) بعض النقوش وخاصة في المناطق العربية التي كانت في العصر الجاهلي على مستوى يذكر من الحضارة. ومن هذه النقوش نقش امرئ القيس الذي يرجع إلى سنة ٣٢٨ م، والذي وضع لتخليد الأعمال التاريخية لأمر متوفى. وهناك نقش آخر يرجع إلى سنة ٥٧٨ م، يعرف بنقش شراحيل يشير إلى تدمير خيبر الذي حدث في سنة ٥٧٧ م^(٢٦).

(٤) ما وجد في مدونات الأمم المجاورة للعرب - والتي كان لها علاقات مع العرب - حول أوضاع العرب وأحوالهم. وحتى هذه المصادر، يجب أن تستخدم بحذر شديد؛ لأن هذه الأمم سجلت ما سجلته من وجهة نظرها. وكثيراً ما تتضمن وجهة النظر هذه حيفاً على العرب.

يتضح بعدما ذكر أن الفترة الجاهلية لم تترك لنا تاريخاً مكتوباً بالمعنى الحقيقي للتاريخ، بل كانت فترة ثقافة

شفوية. وتراثها على العموم أدى الى استمرار الاهتمام بالأيام والأنساب، والى بقاء أسلوب في الرواية هو الأسلوب القصصي شبه التاريخي، إلا أنه يخلو من أية نظرة تاريخية.

ونختتم حديثنا عن التأريخ في العصر الجاهلي بقولنا: إن من أهم الأسباب التي جعلت تاريخ العرب في الجاهلية غامضاً، وعدم توجه عناية مؤرخينا الذين ظهروا بعد الإسلام إليه يكمن في:

(١) القول بأن الإسلام يجب ما قبله.

(٢) صعوبة معالجة مواضيع تاريخ العرب في الجاهلية، بسبب عدم توفر المادة التاريخية الكافية. ولذلك اقتصر مؤرخونا على جمع أخبار العرب في الجاهلية في مقدمات استهلوا بها مؤلفاتهم عن تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام.

(٣) لم تكن الوحدة تسود تاريخ العرب في الجاهلية، بل كان تاريخاً قبيلاً، يتعصب فيه أخباريو كل قبيلة لقبيلتهم. ولما كان الإسلام قد محا العصبية القبلية، وأحل محلها وحدة الصف وأخوة الإسلام، فإن المؤرخين انصرفوا عن التأريخ للجاهلية.

(٤) كان عدد من مؤرخي الإسلام من الموالي، ولم تكن تهمهم العروبة بقدر اهتمامهم بالإسلام الذي دانوا به؛ ولذلك انصب اهتمامهم على التأريخ العربي الإسلامي، خاصة وقد غدا باستعراهم تاريخهم، من حيث إن الإسلام دينهم الجديد الذي ساوهم بالعرب حين أعلن أنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

التأريخ بعد الإسلام

جاء الإسلام بمفاهيم دينية جديدة جعلت عقول الناس تتغير، ونظرتهم إلى الحياة تغذيها مبادئه القويمة. ثم إن الرسول الذي يعتبر خاتم النبيين، ورسالته آخر الرسالات سبقه عدد من الرسل. وكان هؤلاء أصحاب رسالات قُدمت إلى أقوامهم. وقد أنزل الله على رسوله في القرآن الكريم صوراً عن الأنبياء وأقوامهم وما جرى لهم. كما أشار إلى الأمم والقبائل البائدة في قصصه عن الغابرين، والتي عرفت باسم أساطير الأولين؛ فرغب علماء المسلمين في فهم هذه الإشارات وتوضيحها ومعرفة تفاصيلها، فاستعانوا بمن انضوى تحت لوائهم من أصحاب الديانات الأخرى، كاليهود والنصارى. وكان شرح هؤلاء مبنياً على ما جاء في كتبهم الدينية، كالتوراة والإنجيل وشرحهما^(١٢٧).

ويمكن القول إن القرآن قدّم صورة كونية لتاريخ الماضي وجد العرب أن عليهم أن يملأوها بالحقائق التاريخية الواقعية؛ فكان الإسلام بهذا دافعاً عملياً لدراسة التاريخ، إضافة إلى أن الحاجة ماسة لتفسير آيات القرآن، وكان لا بد من أجل إتمام التفسير من البحث عن المعلومات التاريخية المتعلقة بالآيات^(١٢٨). وإضافة إلى ذلك فإن الرسول الكريم أدرك أن الوجود التاريخي من خلال القرآن الكريم الذي أعطى فكرة واضحة عن أن الحياة الدنيا ستنتهي يوم القيامة الذي هو يوم الفصل، فيه تُسأل كل نفس عما فعلت في الحياة الدنيا. ويوم القيامة حادث

ثابت معروف في المستقبل . وقد وصفه القرآن الكريم وصفاً دقيقاً ، بحيث أصبحت أحداثه واضحة للناس ، وكأنها قد حدثت في الماضي القريب ، على الرغم من أنها لم تحدث بعد ؛ فكانت تاريخاً للمستقبل بالمعنى نفسه لوجود تاريخ للماضي^(٢٩) . ويذكر بعضهم أن الرسول اهتم بالتاريخ ، وأوصى به وبتعلمه ، ونسبوا إليه حديثاً مشكوكاً في صحته ، ونصّه : « ولا تدع التاريخ ، فإنه يدلّ على تحقيق الأخبار وقربها وبعدها »^(٣٠) .

أشار القرآن أيضاً إلى الأحداث التي أحاطت بالرسول والمسلمين . وكان نزول هذه الآيات التي تذكر هذه الأحداث ذا أهمية في التاريخ الإسلامي ؛ لأنها استنارت البحوث التاريخية^(٣١) . كما أشار إلى الأحداث العالمية المعاصرة حين تنبأ عن مصير النزاع بين الروم والفرس ، حيث قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ أَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾^(٣٢) .

وعلى أي حال تبقى أماننا حقيقة هي أن القرآن الكريم والرسول نفسه وضعوا البذور التي نحني منها اهتماماً واسعاً بالتاريخ . كما اعتبر المسلمون أن معرفة الرسول بتاريخ الماضي - سواء أكانت هذه المعرفة قد جاءت عن طريق اطلاعه أثناء رحلاته التجارية أم عن طريق القرآن - والتنبؤ على ضوءه للمستقبل إحدى المعجزات التي تثبت نبوته .

بدأ تدوين العلوم في الإسلام بحفظ الشريعة . وكان كل علم له صلة بالشريعة يجب الاشتغال به . ومن هذه العلوم علم التاريخ . وقد أوضح المؤرخ الحافظ السخاوي صلة التاريخ وأهميته وضرورته لعلم الشريعة ، فقال في مقدمة كتابه التبر المسبوك : « ... علم التاريخ فن من فنون الحديث النبوي ... بل وقعه من الدين عظيم ، ونفعه يتعين في الشرع . ونرى أكثر علماء التاريخ المسلمين يرون ضرورة الاشتغال به لا كعلم في ذاته ، ولا لاكتساب براعة في معرفة القصص والأخبار ، بل لخدمة الغرض الديني ، وحتى يكون علم التاريخ مطية لفهم الفقه والشريعة على أكمل وجوهها . فهو من هذه الناحية أداة لحفظ الدين ووسيلة إليه » . كما أكد الأستاذ محمد عبد الغني حسن^(٣٣) الفكرة نفسها ، فقال : « وكان علم الطبقات وتراجم الرجال ... موضع العناية عند المشتغلين بعلوم الفقه والتشريع ... » .

وعلى ضوء ما ذكر يمكن تلخيص الأسباب التي شجعت العرب المسلمين على كتابة التاريخ بما يلي :

١) كان لسيرة الرسول وغزواته أثرها في قلوب المسلمين وعقولهم . ولهذا لم يكن من المنتظر أن يبقى الاعتماد على حفظها بالذاكرة ؛ فاعتنوا بتسجيلها في كتبهم وفي أشعارهم^(٣٤) .

٢) استمرار الحاجة إلى معرفة الأنساب للاستعانة بها في تقدير العطاء للجند ؛ فقد سُجِّلَت أسماء المستفيدين في هذا الديوان من أبناء كل قبيلة على حدة . إضافة لما كان لدرجة القرابة من رسول الله من أهمية في توزيع العطاء ، ولأسباب أخرى هامة ومتعددة لا يتسع المجال لذكرها جميعها^(٣٥) .

٣) القصص التي وردت في القرآن عن الأمم السالفة لجعلها عظة وعبرة للمؤمنين . فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ كما أنزل ﴿ قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربي في كتاب ﴾ .

كما نزلت آيات عن الصراع بين النبي موسى وفرعون مصر وملكة سبأ، وقصة يوسف وامرأة العزيز، هذه القصص وغيرها دفعت العرب المسلمين إلى الاستفسار عن تاريخ من سبقهم وما جرى لهم؛ فنشأ تدوين التاريخ^(٣٦).

٤) اهتمام المسلمين بجمع أحاديث الرسول ونسخها كان من عوامل تدوين التاريخ؛ إذ عني المسلمون بجمعها ليفسروا بها القرآن، ويستنبطوا منها أحكام الدين. وكان من هذه الأحاديث جملة وافرة تتعلق بحياة الناس؛ فجمعت فيما جمع، وكانت أساس كتب السيرة والمغازي فيما بعد^(٣٧).

٥) انتشار معرفة العرب بالقراءة والكتابة بعد أن حض الإسلام على العلم والتعلم، مما أدى إلى نمو عقولهم، وبالتالي إلى كتابة تاريخهم. ولقد اعتبر الجاحظ أن القراءة والكتابة وسيلتان لحفظ حوادث التاريخ حين قال في رسالته عن المعلمين: «لولا الكتابة لاختلت أخبار الماضين وانقطعت آثار الغائبين. وإنما اللسان للشاهد لك، والقلم للغائب عنك وللماضي قبلك والغابر بعدك»^(٣٨).

٦) حرص الأفراد على معرفة تاريخ أمتهم وأجدادها، واهتمام الخلفاء بقتصص الماضين من ملوك وأمراء للسيرة هديهم؛ فقد استن معاوية هذه السنة؛ فاستدعى أرباب السير إلى مجلسه كي يحدثوه ويقرأوا عليه تاريخ العرب والمواقع الحربية الشهيرة، ويزيدوه علماً من تاريخ الفرس ونظم حكوماتهم وإدارتهم في سير الأمور في ممالكهم. ومما يروى في ذلك أن عبيد بن شريه ألف لمعاوية بن أبي سفيان كتاب الملوك وأخبار الماضين، وأن معاوية درج على الاستماع كل ليلة إلى شيء من هذه الأخبار إلى جانب أخبار العظماء وملوكهم^(٣٩). وقد روى المسعودي^(٤٠) موضعاً اهتمام معاوية بالتأريخ وعلمه، فقال: «... يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتهما، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة... ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيصعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وُكِّلوا بحفظها وقراءتها. فتمرّ بسمعه كل ليلة جل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات». كذلك كان الخليفة المنصور يهتم بالاطلاع على سياسات الملوك ومكائدهم^(٤١).

كما اتضح تقدير الساسة للتاريخ كمادة تربية لها فائدتها العلمية في تعديل شخصية الحاكم من وصية الرشيد للأحرار معلم ابنه الأمين، والتي قال فيها: «يا أحرار إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه؛ فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة. فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقره القرآن، وعرفه الأخبار ورواه الأشعار...». وهكذا وضع الرشيد تعلم التاريخ في المنزل الثانية بعد تعلم القرآن^(٤٢).

٧) نظام الحكومة الإسلامية وخاصة المالي والقضائي كانا من العوامل التي أدت إلى تدوين التاريخ. فقد رغب أولو الأمر في معرفة ما فتح من البلدان صلحاً وما فتح عنوة وما فتح بعهد؛ لأن لكل حالة حكم خاص من حيث الجزية والخراج^(٤٣).

٨) اهتمام الحكام بالدعاية لحكمهم وسياستهم، والاهتمام بالدعاية لمذهب ديني معين أو سياسي إثر تمرق

المسلمين إلى مذاهب^(٤٤).

٩) ميل الموالي الى التنويه بمجد بلادهم القديم^(٤٥).

١٠) الأدب العربي: درج شعراؤنا العرب في الجاهلية على أن يضمتوا قصائدهم الشيء الكثير من أخبار قبائل العرب، كما عني بعض شعراء المعلقات بإيراد مفاخر قبائلهم وأيامها. وحين بدأ العلماء بجمع شعر العرب، وتدوين معاني كلمات لغتهم، وأخذوا في ارتياد البادية لدراسة اللغة العربية ورواية معظم منشور ومنظوم شعرائها وخطبائها، قدموا للتاريخ فائدة جلى؛ فقد انساقوا إلى تدوين جميع الأخبار التي تضمنتها تلك الأشعار^(٤٦).

١١) الرغبة العلمية: اندفع أكثر مؤرخينا لكتابة التاريخ حباً في المعرفة، لا من أجل التكبس. وكان الدافع ميلهم للبحث التاريخي، وحرصهم على خدمة المجتمع الإسلامي بصورة عامة، والرغبة في المعرفة لذاتها، مهما كلفهم ذلك من مشقة السفر. وقد عبّر البيروني نعبراً صادقاً عن الرغبة العلمية في البحث، التي كانت تعتمد قلوب الباحثين حين قال: «إِنَّمَا يُخَدَّمُ الْعِلْمُ لِلْعِلْمِ»^(٤٧).

مميزات الكتابة التاريخية العربية الإسلامية

لم يكن مؤرخو المسلمين أول من كتب التاريخ؛ فهناك مؤرخون من أمم أخرى كالهنود والفرس والإغريق والرومان سبقوا مؤرخينا إلى تدوين تواريخ شعوبهم. ولكن العرب بدؤهم في طريقتهم في كتابة التاريخ، حين بدأوا بها جدياً بعد ظهور الإسلام^(٤٨).

وقد بدأت الكتابة التاريخية منذ جاء الإسلام وقامت الدولة العربية الإسلامية، والأصح أنها بدأت في العصر الأموي، إلا أن أبعادها لم تتضح وتظهر بشكل واسع وعريض إلا في العصر العباسي. وقد عبّر عن ذلك أحد أمين بقوله^(٤٩): «نشط العلم في أحضان العباسيين نشاطاً كبيراً، وإن كانت بذرة النشاط بدأت في آخر العصر الأموي. فالتأليف في العهد العباسي شمل كل فرع من فروع العلوم...». كما أضاف قائلاً: «... ولكن ما كتب في عصر الأمويين لم يصل إلى أيدينا منه إلا القليل. وأغلب هذه الكتب أخذت عن العلماء من طريق الرواية، وأدجت في كتب العباسيين التي كانت أتم نظاماً، وأرقى في فن التأليف. وبعض هذه الكتب الأموية موجودة في العصر العباسي وما بعده. فابن النديم يقول إنه رأى صفحات أبي الأسود الدؤلي في النحو، وأنه رأى كتاب عبيد بن شربة في الأمثال. وابن خلكان يقول إنه رأى كتاب وهب بن منبه في تاريخ اليمن. ولكن في عهدنا هذا لم يصلنا شيء يصح أن يوثق به إلا قليلاً»^(٥٠).

ويمكن تلخيص ما ورد بأن الكتابة التاريخية وإن وجدت في العصر الأموي، إلا أن المادة التاريخية في العصر العباسي ازدادت زيادة جوهرية، وامتازت كذلك بالدقة. ويعود السبب إلى ما يلي:

١) إن دواوين الدولة العباسية نضجت في هذه الفترة، وتمهدت قواعدها، ولا سيما دواوين الإنشاء والجند والخراج والبريد. وتمكن المشتغلون بالتاريخ من الانتفاع بسجلاتها في كتابة التاريخ. يتضح ذلك مما ورد في التواريخ المدونة في القرن الثالث الهجري من عهود رسمية، ومراسلات سياسية، وإحصاءات للمواليد والوفيات،

ومَدَدَ ولاية كبار رجال الدولة من وزراء وقواد وعمال وقضاة وولاة لمواسم الحج، ووصف الحروب الداخلية، ووقائع الغزو على الحدود صيفاً وشتاء، وغير ذلك^(٥١).

٢) انتشار استخدام الورق وصناعته؛ فبعد أن كان المسلمون في القرن الأول الهجري يحصلون على هذه المادة الأولية الضرورية من بلدان الشرق، بدأوا بتأسيس مصانع لهذه الصناعات في المدن الإسلامية، فكانت مصانع الورق في سمرقند، وبغداد، وتامة، واليمن، ومصر، ودمشق، وطرابلس، وحماه، ومنبج، وفي المغرب والأندلس. وظهرت أنواع عديدة منها الورق الفرعوني نسبة إلى فرعون مصر، والورق السلياني نسبة إلى سليمان بن راشد عامل الخراج على خراسان للرشد، والورق الجعفري نسبة لجعفر البرمكي، والورق الطلحي نسبة إلى طلحة بن طاهر، والورق الطاهري نسبة إلى طاهر بن الحسين، وكان نشاط مصانع الورق ورخص أثمان منتجاتها عاملاً هاماً في تقدم العلوم. وقد أدى وجود الورق إلى نشوء صناعة الوراق، وهي نسخ الكتب وتصحيحها وانتشار دكاكين الوراقين^(٥٢).

٣) حرصُ الخلفاء الأمويين على اضطهاد آل بيت الرسول وطمس معالم أخبارهم؛ لأن كتاباً في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم سيؤدي إلى ازدياد تعلق المسلمين بآل بيته وتأييدهم لحفدته الذين ما انقطعوا طيلة العهد الأموي عن المطالبة بالخلافة لأنفسهم^(٥٣).

٤) حلت سهولة التنقل بين أنحاء الدولة العربية الإسلامية كثيراً من طلاب العلم من مؤرخين وغيرهم على الرحلة في طلب الرواية وأخذها عن الشيوخ، وتسجيل ملاحظاتهم عن البلاد التي زاروها. فوجد بذلك مصدر هام للمادة التاريخية، هو المشافهة والمشاهدة^(٥٤).

٥) ويمكن أن نضيف، أن حركة الترجمة عن اللغات الأخرى في هذه الفترة أدى إلى تقدم العلوم كافة، وكان تأثيرها في التاريخ من حيث إدخال عنصر المحاكمة وإبداء الرأي. ويمكن أن نوجز الخصائص التي ميزت حركة التدوين في التاريخ العربي الإسلامي بما يلي:

١) الأصالة والاستقلال: امتازت الكتابة التاريخية للعرب المسلمين عن الكتابات التاريخية الأخرى بميزات متعددة جعلت التاريخ العربي الإسلامي مستقلاً عن غيره وأصيلاً؛ فقد نشأ علم التاريخ العربي نشأة طبيعية أصيلة، كيف لا وقد حض القرآن الكريم عليه حين قدّم إشارات عن الأمم والقبائل والأنبياء في قصصه عن الغابرين، كما دفع علماء المسلمين للبحث عن تفاصيل الإشارات وتوضيحها؛ فلجأ المسلمون إلى أصحاب الكتب من قبلهم - وخاصة أولئك الذين أظلمتهم الخلافة العربية الإسلامية تحت جناحها - ليعرفوهم بتلك الإشارات، فربطها المسلمون بالتفسير والتاريخ. واشتهرت هذه الأخبار باسم الإسرائيلية، وبرز عن هذا الطريق أوائل الأخباريين^(٥٥). يضاف إلى ذلك أهمية سيرة الرسول عند الذين لم يعرفوه، وسؤالهم الصحابة الذين عرفوه عن سيرته؛ فيقص الذين وعوا تلك الحوادث أخبارهم على سائليهم. ثم إن العرب المسلمين غداة موجتي الفتوحات اللتين كانتا في عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، أخذوا يستقصون أخبار هذه الفتوح ويشبّون حوادثها لما

لها من علاقة بقضية الخراج واجزية وغير ذلك من أمور.

ويمكن أن نضيف أن حض القرآن الكريم والنبي عليه الصلاة والسلام، ثم بعد ذلك أئمة الإسلام وعلماء الحديث والأصول على وجوب التثبت في قبول الروايات والأنباء والأحاديث دعا إلى اقتداء المؤرخين بهذا، والتثبت من أصحاب الروايات؛ مما زاد في أصالة التاريخ العربي الإسلامي. وقد ذكر القرآن الكريم في مواضع مختلفة منه وجوب التثبت من الأنباء والشهادة فيقول في سورة الحجرات^(٥٦): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ ويقول جلّ وعلا في سورة الطلاق: ﴿وَأَشْهِدُوا ذُوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾^(٥٧). فدلّ بذلك على أن خبر الفاسق يقتضي التبين والتأكد منه، وأن شهادة غير العدل مردودة. وللنبي عليه الصلاة والسلام أحاديث منها «من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»، و«سيكون في آخر أمتي أناس يحدّثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آبائكم، فإياكم وإياهم»^(٥٨).

ويمكن القول إن التاريخ العربي الإسلامي نشأ من البداية نشأة عربية خالصة لم تدخله أية مؤثرات أجنبية، فكان كما ذكر عنه المستشرق جب «بلا شك من وحي العرب»^(٥٩).

(٢) النزاهة والبعد عن التحيز: اشتغل عدد كبير من مؤرخي العرب المسلمين بالعمل التاريخي حباً به، بنزاهة وإخلاص. فامتنعوا عن التزلف لذوي الجاه والسلطان، ورفضوا تناول صلات الأمراء لئلا يضطروا إلى محاباتهم. وكان أمثال هؤلاء من المؤرخين يعيشون من موارد خاصة لهم. فإما أن تكون هذه الموارد ضياعاً يعيشون من ريعها، أو أن يمتنعوا عملاً آخر يقومون به ليدّر عليهم ما يقيمون به أود حياتهم. وكتب التاريخ مملوءة بالأمثلة عن أمثال هؤلاء المؤرخين العرب المسلمين المتصفين بالنزاهة، من أمثال أبي جعفر الطبري، ومسكويه، والبيروني.

كان الطبري نزاهة إلى أقصى درجات النزاهة. ولذلك فإنه لم يتحيز. وقد ساعده على النزاهة وعدم الوقوف على أبواب الخلفاء والملوك والأمراء ما كان له من إيراد ضيعة خلفها له أبوه بإقليم طبرستان. وكان يرّد للخلفاء نوالهم بأدب جم إن حاولوا أن يغدقوا عليه عطاياهم. أما إذا كانت الهدية من النوع الذي يستطيع مكافأة صاحبها عليها قبلها. ومن القصص التي تؤيد ذلك أن الوزير محمد بن عبدالله أرسل له في إحدى المرات بُدرةً فيها عشرة آلاف درعم، وبعث مع حامل البدرة رقعة كتب فيها للطبري أن يقبل المال. وقال لحاملها إن يطلب من الطبري توزيعها في أصحابه ممن يستحق إن رفضها لنفسه. فلما قابل الرسول الطبري وسلمه الرقعة امتنع عن قبول الدراهم، كما رفض توزيعها في أصحابه من المعوزين، واجاب الرسول قائلاً له هو أعرف مني إذا أراد ذلك.

وحين تنتقل إلى المؤرخ مسكويه نجد العجب العجائب، فقد عاش في قصور الأمراء والوزراء وخاصة بلاط عضد الدولة، وتسلم من قبلهم مناصب متعدّدة؛ فقد كان كاتب سرّ الوزير المهلي ونديمه، وخازناً لكتبه. كما أصبح بعد ذلك قتيماً على خزانة كتب ابن العميد^(٦٠). إلا أنه لم يتزلف إلى سلاطينهم ولم يحابهم، بل ذكر ما انتبه

إليه من نقائص بعض أمراءهم. وقد أعجب مرغليوث بموقف هذا المؤرخ وقرّظه بقوله: « وقد كتب المؤرخون في أغلب الأحيان لتعليم مواطنهم... ولا نستطيع أن نجد مثلاً لهذا أحسن من تاريخ مسكويه؛ فقد كانت حياته كلها في خدمة وزراء السلاطين البويهيين: المهلي وزير معز الدولة، وابن العميد وزير ركن الدولة؛ ثم في خدمة عضد الدولة نفسه وابنه بهاء الدولة مباشرة. وربما كنا نتوقع منه أن يكبح جراح نقده لأفعال هؤلاء السلاطين ما دام شرف العائلة يرتكز على أعمال أوائلها، بالرغم من المعارك العنيفة التي نشبت في الجيل الثاني. ولكن ليس من أثر لمثل هذا التحيز في كتابة مسكويه... ورويت أخبار مؤسسي دولة البويهيين دون أية محاولة لإخفاء جرائمهم، ووصمهم باتهام فظيع في حالة معز الدولة... وجعل من أبي الهيجاء ما يشبه البطل، وهو من بني حمدان الذين كانوا على عداء دائم للبويهيين»^(٦١).

أما أبو الريحان البيروني، وهو من علماء ومؤرخي القرنين الرابع والخامس (٣٥١ - ٤٤٠ هـ)، فقد أهدى كتابه في الفلك واسمه « القانون المسعودي » إلى السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين، فأراد السلطان أن يكافئه على عمله، فحمل إليه ثلاثة جمال تنوء بأحبالها من نقود الفضة، فردها إليه قائلاً: « إنما أخدم العلم للعلم ». وهكذا يمكن القول بأن مما ميّز الكتابة التاريخية الإسلامية أنّ المؤرخين عنوا بالتاريخ لمجرد الرغبة الشخصية أو الرغبة في المعرفة لذاتها. ولذلك نجدهم يؤلفون ما يحلو لهم من كتب، وعما يحلو لهم من أحداث. وضمن لهم ذلك حرية الرأي وصدق تناول والنزاهة في المعالجة. وخاصة أن أكثر هؤلاء المؤرخين كانوا رجال فقه وحديث^(٦٢).

والأمثلة كثيرة على استقلال المؤرخين وثباتهم على آرائهم وعلى ما يعتقدونه صدقاً في التاريخ، وأكثر من أن تجمع تحت حصر^(٦٣).

ومع هذه الأمثلة عن نزاهة المؤرخين العرب والمسلمين، فقد كان هناك بعض المؤرخين الرسميين الذين لم يتصفوا بالنزاهة التامة. وقد اشتغلوا في التاريخ وسجلوه بتكليف من خليفة أو أمير، أو أنهم نالوا العطاء والتشجيع من الخلفاء والأمراء. وتختلف كتب هؤلاء المؤرخين الرسميين من حيث النزاهة بحسب قوة شخصية المؤرخ، وقوة وشدة المكلف الرسمي. فإن كان المؤرخ قوي الشخصية فلا يتقيد فيما يكتبه بالتوجيهات التي يرسمها له الخليفة أو الأمير. وقد كان بعض هؤلاء المؤرخين الرسميين يتألمون لقبولهم التكليف، لما يفرضه عليهم ذلك من قول الأكاذيب. وخير الأمثلة على ذلك ما قاله المؤرخ إبراهيم الصابئ الذي قام ببناء على تكليف رسمي من قبل عضد الدولة بن بويه بتأليف كتاب عن تاريخ البويهيين. وحين سأله أحد زواره عما يعمل، أجابه بقوله: « أباطيل ألقها، وأكاذيب ألقها ».

وعلى الرغم من كل ما ذكر عن كتب المؤرخين الرسميين من تحيز، فإنها من الكتب التي يجب الاطلاع عليها والاقتراس من مادتها، لاطلاع هؤلاء في الغالب وتبهرهم في العلم، على أن يكون هذا الاطلاع والاقتراس بحذر شديد. ولنضرب أمثلة على هؤلاء المؤرخين الرسميين. فقد كلف محمد بن إسحق صاحب السيرة من قبل الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور بوضع كتاب في التاريخ لولي عهده، ابنه المهدي؛ مما جعل ابن إسحق يحابي العباسيين

حين يتعرّض لذكر جدهم العباس بن عبدالمطلب، وكان ذلك مدعاة لنقد المؤرخين إياه، لأنهم رأوا أنه لم ينشد الحقيقة حين تحدث عن اشتراك العباس إلى جانب قريش في غزوة بدر مكرهاً، وأيد قوله هذا بحديث يرى علماء الحديث أنه حديث ضعيف^(٦٤).

كما فرض خالد بن عبدالله القسري أكبر زعماء اليمن ووالي الأمويين على ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ، ألا يذكر شيئاً من سيرة علي بن أبي طالب إلا ما يُمكن من تنقّص هذا الخليفة والنيل منه. وقد اعترف كثيرون للزهري بسعة الاطلاع، ووَجَّه إليه النقد بسبب صحبته الملوك، والتي جعلته يسايرهم في آرائهم أحياناً، فقال فيه مكحول: «أي الرجل الزهري لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك»^(٦٥).

ومن كتب التاريخ الرسمية كتاب التاجي الذي حمل لقب عضد الدولة من آل بويه، وهو تاج الملة. وهناك أيضاً كتاب «اليميني» للعبي، ويتضمن أخبار يمين الدولة في الهند. ومن زمرة هذه الكتب كتاب «الفخري في الآداب السلطانية» لابن طباطبا العلوي المعروف بابن الطقطقي من مؤرخي القرن السابع الهجري. وقد كتبه لأمر الموصل في أيامه المعروف باسم عزالدين عيسى بن إبراهيم^(٦٦).

٣ - صحة الروايات الواردة في التاريخ العربي الإسلامي وصدقها ودقتها: نشأت هذه الدقة من احترام

المسلمين للنبي، ورغبتهم في تحري الصدق في تدوين كل ما يتعلق به من أحاديث أو أفعال أو أخبار؛ فانتهجوا بعملهم طريقة علمية، ونهضوا بالنقد الذاتي الذي انصبّ على رواة الأخبار بدلاً من توجيهه للرواية ذاتها^(٦٧). وكانت طريقتهم الطريقة نفسها التي اتبعها المحدثون. وقد يكون ذلك لأن أكثر مؤرخينا الأول كانوا إما محدثين أو مفسرين قبل أن يتناولوا كتابة التاريخ. وأمثال هؤلاء كثير، منهم: الزهري، والواقدي، وابن إسحق، وابن سعد، والطبري. وتتلخّص طريقتهم في العمل، أنهم فضّلوا الرواية الشفهية على الرواية المدونة في الصحف، كما أهملوا كل من لم يثقوا به من الرجال، ولم يأخذوا إلا عن العدول الثقات؛ إذ اعتبروا أن صدق الحديث والثقة به تابع لصفات راويه؛ باعتبار أن الصادق لا ينطق إلا بالصدق. وبناء على ذلك فقد وضعوا لكل حديث سنداً (عنينة).

كان السند في البداية مرسلاً، أي أن المؤرخ يذكر أسماء رواة الخبر حتى الراوي الأول. ومع تقدم الزمن، وازدياد سلسلة الرواة في الطول للوصول إلى الراوي الأول - حتى أصبح السند أطول من المتن - اكتفى المؤرخون بذكر الراوي الأخير. ويعرف مثل هذا السند بالسند المقطوع. ويقال إن من استقرّ ذكر السند محمد بن إسحق. ويعتبر ذكر السند بمثابة ذكر المصادر المستقى الخبر منها. ويعتبر المصدر الأول للخبر هو المستقى من الشاهد العيان، أو من اشترك في الحدث نفسه، أي من له علم مباشر بالواقعة وعليه الاعتماد في رواية الأخبار^(٦٨).

وحرصاً على الدقة والصدق، نقل لنا المؤرخون العرب المسلمون الأول الروايات التاريخية المختلفة، حتى ولو كان الخلاف بالمتن بسيطاً. وذكروا لكل رواية السند الخاص بها. وقد أدت العناية بالروايات المختلفة والأسانيد

المتنوع إلى التكرار. إلى درجة تجعل القارئ يمل. فالحادث الواحد يكرر عدة مرات دون أي زيادة أحياناً وبتفصيل نقطة بسيطة أحياناً أخرى. أو باختصار عبارة على حسب الأسانيد المختلفة التي روتها. كما جعلهم تأثرهم بالأحاديث يصوبون نقدهم كله على الأسانيد دون النصوص؛ مما يسر الانتحال والاختراع؛ لأن اختراع السند كان أمراً سهلاً. ولذلك لجأوا إلى نقد الرجال بشدة^(٧٦). للتأكد من صدقهم؛ توخياً للصدق فيما يكتبون؛ فلجأوا كعلماء الحديث إلى تجريح الرواة وتعديلهم. حتى أصبح الرواة الصادقون معروفين للجميع.

لذلك يمكن القول أن مؤرخينا سبقوا مؤرخي الأمم القديمة جميعها في توحيهم الحقيقة وإثباتها. وقد نالت طريقة إثبات الأسانيد والوثوق من رواة الأخبار إعجاب المستشرقين المنصفين وتقديرهم، فاعترفوا بأن تواريخ العرب المسلمين وصلت إلى مرتبة متقدمة من الصحة، كما تقدموا بنقد الاعتماد على الرواية الشفهية؛ فحول النقطة الأولى أورد المستشرق مرغليوث^(٧٧). قوله: «... ولكن نظرية الإسناد سببت متاعب لا نهاية لها أحياناً بسبب الأبحاث التي ينبغي القيام بها لتوثيق كل راو، ولفهم وضع الأحاديث وتقليدها أحياناً في سهولة، لا يمكن الشك في قيسها لضمان الصحة...». وأما عن النقطة الثانية، وأقصد اعتماد العرب على الرواية الشفهية، فقد أورد قائلاً: «... ونعترف بأن عدة أسباب اجتمعت لعرقلة جهود هؤلاء الذين حاولوا أن يضمّنوا الصحة عن هذا الطريق، وأولها عدم جدارة الذاكرة البشرية بالثقة. ونجد أمثلة ذلك حتى بين من اشتهروا بقوة حافظتهم. وثانياً الصعوبة التي واجهها كثيرون في ملاحظة الحقائق وبنات الخيال ملاحظة دقيقة والتمييز بينها... ورابعاً وجد بين المحدثين الذين لا يحصى عددهم جماعة من الأشخاص المستهترين الذين شوّهوا أو كذبوا عمداً. وبرغم ذلك كله تبلغ صحة أشهر المؤرخين العرب مرتبة سامية، وتجعل كتبهم ذات نفع عظيم للبشرية»^(٧٨).

٤) استخدام التقويم الهجري: إذا كان الإسناد أساس نقد الأخبار عند العرب المسلمين، فقد كان أساس ضبط التاريخ التوقيت الدقيق الذي استعملوه بالسنين والشهور والأيام، الأمر الذي أكسب كتابتهم تتابع الحوادث. وهو ضابط انفردوا به عن نظرائهم عند اليونان والرومان وأوروبا في العصور الوسطى. قال المؤرخ الإنكليزي بكل: «إن التوقيت على هذا النحو [النحو الذي عرفه العرب] لم يعرف في أوروبا قبل عام ١٥٩٧ م»^(٧٩).

لم يكن للعرب في جاهليتهم تقويم تاريخي ثابت. وكان عرب اليمن قبل الإسلام يؤرخون بالأحداث الهامة أو بمدة حكم بعض ملوكهم حتى سنة ١١٥ م. وحين جاء الإسلام عمل العرب المسلمون على اتخاذ معايير للتأريخ؛ فأرخوا بسنة ولادة الرسول، أي عام الفيل سنة ٥٧١ م وغيرها. وفي خلافة عمر بن الخطاب استقر الأمر على اتخاذ الهجرة إلى المدينة مبدأً للتأريخ. وقد ذكر المؤرخون أن اعتماد الهجرة للتأريخ كان في السنة السابعة عشرة للهجرة^(٨٠). واتفق كبار الصحابة على جعل بداية العام الهجري في شهر المحرم، على الرغم من أن هجرة الرسول كانت في ربيع الأول؛ لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم إثر بيعة العقبة الثانية فناسب أن يجعل مبتدأ للتأريخ^(٨١)، وبذلك أصبح تأريخ الأحداث دقيقاً لتحديدته بالسنة والشهر واليوم، على حين تأخر مؤرخو أوروبا في هذا الأمر حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي^(٨٢).

٥) اهتمام المؤرخين بكتابة التاريخ العربي الإسلامي: انصب اهتمام مؤرخينا على كتابة التاريخ العربي الإسلامي، فلم يعالجوا تواريخ الشعوب المجاورة المعاصرة لهم من هنود وفرس وقبط وبيزنطيين وغيرهم إلا بقدر ما له علاقة بتاريخ العرب والإسلام، وكانت دراستهم لتواريخ هذه الأمم من زاوية علاقتها بتاريخنا، مع وجود بعض الشواذ لوجود قلة من الرحالة ممن جابوا العالم المعروف، وكتبوا عنه، وعلى رأسهم المسعودي. وكذلك المؤرخون من غير العرب كاليعقوبي والدينوري والطبري الذين أوردوا تاريخ الشعوب التي ينتمون إليها. وهناك الشعوب الذين كانوا يهتمون بمآثر أجدادهم وبيان فضائلهم، والإشارة إلى أنّ حضارتهم أهم من حضارة العرب، لا بل كان مؤرخو هذه الفئة لا ينقطعون عن النيل من العرب، وانتقاص شأنهم وامتهان حضارتهم^(٧٦).

مظاهر الكتابة التاريخية

بدأت الكتابة بعد ظهور الإسلام بتدوين السيرة، سيرة الرسول الأعظم، من جوانبها الدينية والسياسية جميعها، بناءً على أحاديث رواها الصحابة والتابعون عن حياة النبي وأخباره إلى حين وفاته^(٧٧). وقد سمي هذا الفرع من التاريخ مغازي الرسول أو المغازي حسب؛ فالتاريخ ابتدأ عند العرب المسلمين فرعاً من علم الحديث؛ ولذلك فإنه تأثر بطريقة أهل الحديث؛ فاقترعت رواية سيرة الرسول أول الأمر على الروايات الشفهية. وكان رواة السيرة يسردون أخبارها بذكر السند، بالطريقة نفسها التي يروون بها الحديث^(٧٨).

وقد قسم أحمد أمين^(٧٩) مؤرخي السيرة والمغازي حتى منتصف القرن الثالث الهجري ثلاث طبقات، تضم الطبقة الأولى كلاً من عروة بن الزبير (ت ٩٢ هـ تقريباً)، وأبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥ هـ)، وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣ هـ)، ووهب بن منبه (ت ١١٠ هـ). أما الطبقة الثانية فتتألف من عاصم بن عمر بن قتادة (ت ١٢٠ هـ)، ومحمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ)، وعبدالله بن أبي بكر بن حزم (ت ١٣٥ هـ). والثالثة تتألف من موسى بن عقبة (ت ١٤١ هـ)، ومعمّر بن راشد (ت ١٥٠ هـ)، ومحمد بن إسحق (ت ١٥٢ هـ)، وزيد البكائي (ت ١٨٣ هـ)، ومحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ)، وابن هشام (ت ٢١٨ هـ)، وابن سعد (ت ٢٣٠ هـ). وكان غالبية هؤلاء المؤرخين من المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية، كما كانوا عرباً، سواء أكانوا من جنوب الجزيرة العربية مثل وهب بن منبه أم من شملها كأبان وعروة. ثم ما لبث الموالي أن نسجوا على منوال من سبقهم، ودخلوا في خضم كتابة التاريخ الإسلامي، ولا ضير في ذلك؛ فقد كان هؤلاء من المسلمين، وإن لم يكونوا عرباً.

وإذا دققنا في بعض كتابات مؤرخي السيرة، نجد أنّ كتابة وهب بن منبه - بناء على ما وجد من مغازيه بين مجموعة أوراق بردي شت رينهارد المحفوظة في هيدلبرج - كانت أقرب إلى القصص منها إلى التاريخ. أما أبان بن عثمان، فيبدو أنّ سيرته التي جمعها لم تكن إلا صحفاً فيها أحاديث عن حياة الرسول. ويظهر أنّ أخباره ضاعت ولم ينقلها أحد عنه عدا ابن سعد الذي نقل خبراً أو خبرين^(٨٠). وقد رواها عنه المغيرة بن عبد الرحمن^(٨١).

وإذا عدنا إلى عروة بن الزبير، فإننا نجد أنه لم يقتصر في تاريخه على الرواية الشفهية، بل دَوّن بعض الأحداث التي طلبها منه عبد الملك بن مروان وابن أبي هنيذة الذي كان في بلاط الوليد بن عبد الملك على شكل رسائل بعثها إليهما. وقد وصل إلينا بعض هذه الرسائل في ما كتبه ابن إسحق والواقدي والطبري عن ابن عروة المعروف باسم هشام. وتمثّل رسائل عروة أقدم المدوّنات التي وصلت إلينا عن بعض الحوادث الخاصّة في حياة النبي، كما تمثّل أقدم آثار الكتابة التاريخية العربية. ويذكر حاجي خليفة^(٨٢) أنّ عروة أول من صنّف المغازي. وإذا كان عروة قد ألّف كتاباً، فإنّ كتابه لم يصل إلينا، ولا تذكره المصادر الأولى كابن إسحق والواقدي وابن سعد. ولم يكتفِ عروة بكتابة المغازي، بل كتب تاريخ الخلفاء الراشدين؛ فعالج بعض فتوح العراق والشام، كما روى تاريخ الزبيرين. وما يميز كتابات عروة أنه كان لا يتقيد دائماً وأبداً بذكر الأسانيد، كما كان لا يبدي رأيه فيما يكتبه من تاريخ؛ مما جعله يروي في تاريخه بعض الأخبار التي لا يستطيع تصديقها بسهولة، ويسبقها بكلمة «زعموا». كما استعمل الألفاظ القرآنية، وزيّّن كتاباته التاريخية بالشعر الذي كان ينثره في ثنايا كتاباته على لسان المشتركين في تأليف أحداثه^(٨٣).

جرى تطور سريع في كتابة السيرة والمغازي على يد محمد بن مسلم بن شهاب الزهري. فبعد أن كان من سبقه يذكر كل حدث لوحده ويرفقه بسنده، أخذ الزهري يحاول الربط بين الأحاديث، بحيث يؤلّف منها خبراً منسّقاً. كما عمل على نشر التاريخ بين الجمهور، وحثّ على ذلك^(٨٤). وقد افتخر بنشره العلم، فقال: «ما صبر أحد على العلم صبري، ولا نشره أحد نشري».

وأما عاصم بن عمر بن قتادة، فقد روى عن أبيه، وروى عنه كل من ابن إسحق والواقدي. ووصفه ابن قتيبة^(٨٥) بأنه صاحب السر والمغازي. وقد اهتم بحياة الرسول في الفترة المكية والمدنية، كما اهتم بتاريخ الخلفاء الراشدين، وخاصة أخبار فتنة عثمان. وكان يكتب التاريخ على طريقة المحدثين في الغالب بذكر السند، ويروي الشعر في كتاباته على لسان المشتركين في الحوادث. وامتاز عن غيره بإبداء رأيه في الأحداث والتعليق عليها^(٨٦).

وأما موسى بن عقبة فله كتاب في المغازي لم يصل إلينا منه إلا شذرات. وقد ذكره لنا مالك بن أنس حين قال: «عليكم بمغازي موسى بن عقبة... فإنه رجل ثقة طلبها على كبر السن، ولم يكثر كما أكثر غيره». وقد اقتبس ابن سعد كثيراً منه عن طريق أستاذه الواقدي، وعن طريق ابن أخي موسى المعروف بإسماعيل بن إبراهيم، كما نقل عنه الطبري^(٨٧).

أما سليمان بن طرخان فهو من أهالي البصرة، له كتاب عرف باسم السيرة الصحيحة، جاءت فيه الأخبار موجزة؛ فهو لا يذكر الأسانيد، ولا يُعنى بالروايات المتعددة، وإنما يسير على رواية واحدة لا يتعدّاها. ويمتاز وصفه بالقوة والحياة والوصف الحي الصادق للمعركة ونفسية المشتركين. وقد شهد له كثيرون بالعدالة والفضل^(٨٨). كما عُني بإيراد الآيات القرآنية وشرح مناسباتها التاريخية والاعتماد عليها. وعُني بإضافة الشعر بشكل معتدل^(٨٩). وقد نقل عنه الطبري^(٩٠).

وبعد هؤلاء المتقدمين من كتاب السيرة يأتي عميد الكتابة فيها محمد بن إسحق، الذي ألّف كتاباً في السيرة

غطى به على جميع من كتبوا في هذا الباب، عرف باسم كتاب المغازي، ويعرف عادة باسم سيرة ابن إسحق. وقد لقيت هذه السيرة عناية كبيرة فرواها خمسة عشر تلميذاً لابن إسحق. ومما ميّز سيرة ابن إسحق أنّه استعان في الحصول على مادّته بالعلماء من غير المسلمين في إخباره عن الأحداث اليهودية والمسيحية والفارسية. ولذلك نراه يذكر بين رواته بعض أهل العلم من أهل الكتاب، كما عني ابن إسحق بالرجوع إلى الوثائق والمدونات؛ فكاله المحدثون التهم^(١١). كما زين كتابته التاريخية بالأشعار الكثيرة دون التحقق من صحتها، واعتذر عن نفسه بأنه ليس عالماً بالشعر، وأنه يدون ما يُحْمَلُ إليه^(١٢).

كما سائر الكتابة في سيرة الرسول ومغازيه الكتابة في الأنساب. وعناية العرب بالأنساب لم تنشأ مع الإسلام، بل عني العرب في جاهليتهم بها، واستمرت في العهد الإسلامي؛ لأنها تغذي الشعراء في ميدان الفخر والهجاء^(١٣)، إلى جانب ظروف أخرى أوجدتها حاجة ديوان العطاء وغير ذلك من أمور^(١٤). وقد اشتهر جماعة من أول عهد الإسلام بحفظ الأنساب، فاشتهر أبو بكر الصديق بأنه نسابة وله أخبار ومناظرات في ذلك تدلّ على معرفته الواسعة بقبائل العرب وفروعها، لكنه لم يترك لنا شيئاً مكتوباً. واشتهر بذلك أيضاً دغفل بن حنظلة الشيباني^(١٥). وقد نسب إليه بعضهم كتاب التظافر والتناصر وعدّوه كتاب أسرار شائعة واحاديث طليّة، وقيل إنه كان يسامر به الخليفة معاوية بن أبي سفيان^(١٦).

وأشهر من كتب في الأنساب محمد بن السائب الكلبي، وجاء بعده ابنه هشام الكلبي، فأكمل خطة أبيه فكان عالماً بالنسب وأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها. وله كتب كثيرة ذكرها ابن النديم^(١٧)، من أشهرها كتاب الفريد في الأنساب وكتاب الملوكي في الأنساب^(١٨).

ويذكر عن عبدالله بن عباس أنه كان واسع الاطلاع على الشعر والأنساب وأيام العرب. وأورد ابن سعد رواية عن موسى بن عقبة أن كريب بن أبي مسلم مولى عبدالله بن عباس، وضع عنده حل بعير من كتب ابن عباس^(١٩)، دون أن يذكر اسم كتاب معين^(٢٠).

ومن كتب في الأنساب زياد بن أبيه المتوفى سنة ٥٣ هـ، وكتابه مثالب العرب. دفعه إلى ولده قائلاً لهم: «استظفروا به على العرب، فإنهم يكفون عنكم»^(٢١).

ويتصل بهذا ما فعله الشعوبية في هذا العصر، كالذي فعله أبو عبيدة؛ فقد ألف كتاب المثالب وكتاب أدياء العرب، وكالذي فعله علان الشعوبي؛ فقد ألف كتاباً في المثالب، منه مثالب قریش، ومثالب تميم بن مرة، ومثالب بني أسد، ومثالب بني عدي؛ فهؤلاء وأمثالهم كانوا يتعرضون للأنساب من ناحية ذكر عيوب القبائل العربية والتشهير بها تبعاً لنزعتهم الشعوبية^(٢٢).

ظهرت بعد هذه الفروع الرئيسة فروع أخرى للتاريخ اهتمت بدراسة الطبقات - من محدّثين وصحابة وفقهاء وشعراء وأطباء - والفتوح. كما اهتمت طائفة من المؤرخين بتدوين تواريخ الأقاليم والأمصار الإسلامية، وهم مؤرّخو البلدان. وثمة كذلك مؤرّخو التراجم الذين اهتموا بتدوين حياة الأعلام في نواح مختلفة، وهناك

أصحاب التواريخ العامة، وعميدهم محمد بن جرير الطبري^(١٠٣).

كان رواد مؤلفي كتب الطبقات من مؤرخي السيرة والمغازي؛ ومنهم محمد بن عمر الواقدي وتلميذه محمد بن سعد. ونتيجة كون مؤرخي الطبقات من المحدثين، فقد صنفوا رواة الحديث في طبقات. فصنفوا رواة الأحاديث من الصحابة والتابعين حسب أهميتهم العلمية، ثم حسب المدن التي استقروا فيها. ويبدو على هذا الشكل أنّ اهتمام مؤرخي الطبقات انصبّ على دراسة حياة رواة الحديث والأخبار، ومن ثم توسّع مجال الطبقات؛ فاهتم مؤرخو هذا الباب فيما بعد بتصنيف أقطاب كل علم وفنّ وجعلهم في طبقات^(١٠٤).

أما مؤرخو فتوح البلدان فكان بعضهم من المحدثين أصلاً كالواقدي صاحب كتاب فتوح الشام، وبعضهم لم يكن كذلك. وقد أفاد مؤرخو هذا الباب الذين ظهر روادهم في القرن الثالث الهجري من المادة التاريخية الدسمة والضخمة التي جمعها ودونها مؤرخو القرن الثاني، وخاصة مؤرخو السيرة والمغازي.

سار مؤرخو الفتوح سيرة رجال الحديث في الرحلة في طلب العلم، وجابوا مختلف الأصمار للاتصال بمن رروا عمن عاصر فتوح البلدان^(١٠٥). وكان يحذوهم في ذلك الرغبة في التحقق مما يكتبونه والاطلاع على موقف الشرع من سكان البلاد التي فتحت صلحاً أو عنوة، لما يتبع ذلك من اختلاف موقف الشرع من أولئك السكان ونوع الفتح. هذا فضلاً عن أنّ اهتمام بعض مؤرخي الفتوح بإيراد أخبارها كان عصبيةً منهم لقبائلهم؛ لأن تلك الفتوح تخلّد مآثر هذه القبائل. ولنضرب مثلاً عن تحقق مؤرخي الفتوح فيما يكتبون فيما كان يفعل البلاذري. فإلى جانب اعتماده على كتب من سبقه من المؤرخين كان يجمع التفاصيل عمّا كتبه في فتوحه من علماء كل إقليم. فقد زار الأماكن وتعرّف على الأفكار الشائعة فيها والمتعلقة باسم الفاتح وطريقة الفتح وما تلاه من أحداث هامة. وبذلك زوّدنا بتفاصيل هامة جدّاً تتعلق بتاريخ الحضارة والنظم الاجتماعية، كذكره تعريب الدواوين والخلاف مع البيزنطيين من أجل القراطيس ومسائل الخراج واستعمال الخاتم والسكة وتداولها، وتاريخ الخط العربي، وتوزيع الأقاليم على القبائل، وانتقال السكان من مكان إلى آخر، وإنشاء الآثار العامة أو المرافق وإتمامها.

وثمة نوعان لكتب فتوح البلدان: فمنها العام، ويتناول دراسة سائر الفتوحات الإسلامية إلى زمن المؤرخ، ككتاب البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) فتوح البلدان؛ ومنها الخاص ويدرس فيه المؤرخ فتح إقليم من الأقاليم، كفتوح الشام للواقدي، وفتوح مصر والمغرب لابن عبدالحكم (ت ٢٥٧ هـ).

اهتم عددٌ من المؤرخين بكتابة تاريخ قطر من الأقطار العربية الإسلامية، أو الترجمة لبعض مشاهير الرجال الذين نشأوا في القطر أو في المدينة التي عنوا بكتابة تاريخها. ويغلب على الظن أنّ اهتمام أولئك المؤرخين بقطر واحد أو مدينة واحدة كان نتيجة أنهم من أبناء ذلك القطر أو تلك المدينة. ومؤرخو البلدان كثر؛ على رأسهم الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) صاحب كتاب تاريخ بغداد (أو مدينة السلام). ويشمل هذا الكتاب وصفاً مستفيضاً لعاصمة العباسيين، كما يطلعنا على سير من تعاقب عليها من خلفاء، ومن عاش فيها من الأمراء والوزراء، أو أمّها أو غادرها من أولي الفضل والعلم. ويسجّل ترجمة وافية لكل منهم. ويتألف من أربعة عشر

جزءاً . وكذلك ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) صاحب كتاب تاريخ دمشق الذي جمع فيه تراجم كل الرجال الذين كانت لهم صلة بتلك المدينة ، ومنهم ابن زولاق وابن إياس والمقرئزي والمقرئ .

بدأ المؤرخون بكتابة التواريخ العامة منذ منتصف القرن الثالث الهجري . وقد ضَمَّنوا كتبهم تاريخ العرب وغير العرب . وقام عملهم على التوفيق بين ما استمدَّوه من كتب السيرة والتأليف التاريخية ، ثم سعوا لإدماج كل ذلك في رواية تاريخية متماسكة . وكتب بعض المؤرخين بإيجاز أو بإسهاب تاريخ العالم ، بادئين به منذ الخليقة ، رجاعلين ذلك كمقدمة للتاريخ الإسلامي . على حين بدأ آخرون كتابتهم بالتاريخ الإسلامي مباشرة . وقد كتبت مقدمة هذه الكتب دون تمحيص أخبارها ؛ ولذلك تسربت الخرافات إليها . وصار من الصعب أن يميز الإنسان بين العناصر الخرافية في القضايا المتعلقة بتاريخ الأمم الأخرى من غير العرب^(١٠٦) . وإذا انتقلنا إلى الجزء الثاني من التواريخ العامة ، فإننا نجد ظهور العنصر العقلي في التأليف التاريخي ، والرغبة في المعرفة لذاتها . واستقلَّ علم التاريخ عن العلوم الأخرى الدينية ، وازداد عدد المؤلفات في هذا الباب زيادة مضطردة ، أشار حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون إلى أنها بلغت ألفاً وثلاثمائة كتاب في التاريخ^(١٠٧) .

وقد ظلت سلسلة التواريخ العامة مطَّردة من حيث انتهى الطبري ؛ فوضع المسعودي (ت ٣٤٩ هـ) كتابيه مروج الذهب وأخبار الزمان ، وصنف مسكويه (ت ٤٢١ هـ) تجارب الأمم ، وابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) كتابه الكامل في التاريخ ، وأبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ) كتابه المختصر في أخبار البشر ، وابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) تاريخه العبر وديوان المبتدأ والخبر .

وتقسم كتب التاريخ العام إلى قسمين :

أ) الكتب الحولية ، تلك التواريخ التي تتسلسل الحوادث فيها حسب تعاقب السنين . ويظهر أن أول من صنف على هذا النمط الهيثم بن عدي (ت ٢٠٧ هـ) ، ثم ألف من بعده : الطبري ، ومسكويه ، وابن الأثير ، وابن الطقطقي ، وابن العبري ، وأبو الفداء ، وغيرهم .

ب) تاريخ السلالات الحاكمة أو تاريخ الملوك أو الدول ، وتساق الحوادث فيها مساق القصة المنسقة المرتبة على العهود . وكان مؤرخو السلالات كثيراً ، منهم : ابن واصل ، وأبو شامة ، وابن شداد ، وابن خلدون ، وغيرهم . وضعت الغالبية العظمى من كتب التواريخ العامة التي كُتبت منذ النصف الثاني من القرن الرابع على يد كبار موظفي الدول الإسلامية ؛ مما جعل التدوين التاريخي يتصف بصفات عديدة ، منها :

١) اهتمام المؤرخ بمعالجة الحوادث التي تتعلق بمحدود النظام السياسي الذي يعيش في كنفه ، دون معالجة حوادث تجري في أقاليم بعيدة عنه ، غالباً ، واعتماده على الوثائق الرسمية والصلات الشخصية وما يدور بين العمال وفي دوائر البلاط من أحاديث .

٢) اتصفت كتب بعض أولئك المؤرخين بالتحيز السياسي لدعم وجهة نظر الدولة التي يؤرخ لها ، والنيل من أعدائها . واقتصرت كتب الحوليات على ذكر ما يفعله الأمير وما تقوم به حاشيته . وبذلك أهمل المؤرخون

المسائل الاجتماعية والسياسية والدينية، إلا فيما ندر.

ويمكن أن نضيف مميزات أخرى امتاز بها التدوين التاريخي بمرور الزمن، منها:

(١) أخذ مؤلفو التاريخ يختصرون الأسانيد، مقتصرين على إشارة موجزة للمصدر، بل استغنى بعض المؤرخين المتأخرين عن الإسناد غالباً.

(٢) اهتم بعض المؤرخين بدراسة التاريخ لقيمته الأخلاقية؛ لأنهم يرون التاريخ عبراً يمكن الاستفادة منها في تربية الأجيال القادمة؛ فيذكرون الفعال الطيبة والخبيثة، ونتائج هذه الفعال على الصعيد الخاص والعام. ليتجنب الإنسان الفعال الخبيثة، ويتمثل الفعال الطيبة.

(٣) نحا التاريخ منحىً فلسفياً عميقاً إثر تعرض الوطن العربي الإسلامي لأزمات سياسية وعسكرية، معبراً عن الأحداث الجسام والخطوب العظام التي مرّ بها؛ فأخذ يتعرف علل الحوادث وأسباب قيام الدول وعلل سقوطها، ومظاهر العمران وأصول الاجتماع، ونحو ذلك؛ فكانت مقدمة ابن خلدون التي لم يكتب مثلها قط. وكذلك رأى المؤرخون أن ينظروا إلى التاريخ نفسه، وأن يجعلوه مجالاً للبحث؛ فوضع في هذا المجال المؤرخ الصفدي (ت ٦٧٤ هـ) مقدمة كتابه الوافي بالوفيات، والسخاوي (ت ٩٠٢ هـ) كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ^(١٠٨).

هذا ويمكن أن نسجل بعد هذا العرض، أن هناك ثلاث مدارس تاريخية إبان حركة تدوين التاريخ، وهي:

(١) المدرسة اليمنية، وهي الأولى في الظهور، ويمثلها عبيد بن شربة، ووهب بن منبه. وتُعنى بأخبار أهل الكتاب وتاريخ اليمن، وتجعل من التاريخ قصصاً خيالية وأساطير شعبية. فهي تمثل استمرار التيار الجاهلي أصدق تمثيل. ولذلك يمكن أن نسمي مؤرخيها القصاصين أو الإخباريين، ونسمي كتاباتهم الروايات التاريخية.

(٢) مدرسة المدينة، وهي تتألف من الفقهاء والمحدثين أمثال أبان وعروة والزهري. وهي مدرسة التاريخ العلمي الدقيق الذي يُعنى بالسيرة والمغازي، ويسير على خطى علم الحديث ويعنى بالأسانيد، وتتطور مادة هذه المدرسة، فتتسع لتشمل تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين.

(٣) مدرسة العراق، التي يمثلها عوانة بن الحكم، وأبو مخنف، والكلبي، وغيرهم. وهذه المدرسة اهتمت بمختلف تيارات التاريخ الجاهلي والإسلامي. ووجّهت عناية خاصة لتاريخ الخلفاء. وكان من أثر عنايتها تلك أن احتل العراق المركز الأول في هذه التواريخ. ولذلك نجد تاريخ العراق وأحداثه مفصلة، بينما نلاحظ ندرة في ذكر أحداث الأمصار الأخرى^(١٠٩). ولا يعني ذلك أنّ هذا الانقسام بين المدارس كان نهائياً؛ فقد ظهر مؤرخون تلاقوا المدارس الثلاث في كتاباتهم، كمحمد بن إسحق وغيره.

ولا يسعني في الخاتمة إلا أن أذكر هذا الاعتراف الذي كتبه هرنشو موضحاً به أهمية التاريخ العربي الإسلامي وأثره على التقدم الملحوظ في تاريخ أوروبا، حيث يقول: «ربما كان التقدم الملحوظ في تاريخ العهد الأخير من العصور الوسطى [يقصد العصور الوسطى الأوروبية] ناشئاً إلى حدٍّ بعيد من تأثير الحضارة العربية

التي شملت العالم الإسلامي في ذلك الزمان . لقد تماشّت النصرانية والإسلام في الأرض المقدسة وما يجاورها، وفي صقلية وجنوبي إيطاليا والأندلس . . . كذلك الصليبيون خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . لقد بُهتَ أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا الكفار الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم، على حضارة دنيوية ترجع حضارتهم رجحاناً لا تصحّ معه المقارنة بينهما . ففي مجال التاريخ الذي نحن بصدد الكلام عليه وحده، نجد المسعودي العربي يعرض في كتابه مروج الذهب عرض خبير ماهر تاريخ واثغرافية غرب آسيا وشمال أفريقيا وشرق أوروبا . ونجد ابن خلكان الدمشقي يصنّف معجماً في التراجم التاريخية جديراً بأن يقرن إلى تراجم فلوطرخ^(١١١) . ثم نجد شيخ مؤرخي العرب عبدالرحمن بن خلدون التونسي قد كتب فيما كتب مقدمة لتاريخ عام بلغت من سعة الإحاطة وصحة النظر وعمق الفلسفة ما جعلها مصداقاً لما قاله الأستاذ فلنت^(١١٢) في حقّ ذلك العالم التونسي الكبير من أنه واضع علم التاريخ .

ثم يذكر هرنشو طرق انتقال علم التاريخ العربي الإسلامي إلى أوروبا، فيقول: « انتقل أثر هذه الثقافة العربية إلى أوروبا النصرانية عن طريق مدارس الأندلس وجنوب إيطاليا؛ فكان من العوامل القوية في انتهاء العصور الوسطى وانبثاق فجر العصور الحديثة »^(١١٣) .

وعلى الرغم من كل مميزات الكتابة التاريخية العربية الإسلامية، وما جرّته من منافع للعالم أجمع، وما عكسته من حضارة العرب المسلمين، فإن فيها بعض النقائص، وعلى رأسها عدم توجيه المؤرخين عنايتهم إلى دراسة المجتمع وحاجاته المختلفة والمرافق العامة، وخلط الحقائق بالأساطير العجيبة والخرافات . ومهما قيل في هذا المجال، فإنّ هذا النقص لا يساوي شيئاً أمام عظمة ما خلفوه للمؤرخ الحديث من ثروة تاريخية طائلة، يستطيع أن يتدارك في صياغتها وتحليلها ما فاتهم . وإن العلم الحديث يسجلّ لهم أنهم أول من ضبط الحوادث بالإسناد والتوقيت الكامل الدقيق، وأنهم مدّوا حدود البحث التاريخي ونوّعوا التأليف فيه، وأكثروه بحث لم يلحق بهم من تقدمهم أو عاصرهم من مؤرخي الأمم الأخرى، وأنهم أول من كتب في فلسفة التاريخ والاجتماع وتاريخ التاريخ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأول واجب المؤرخ وآخره، وهو الصدق في القول، والنزاهة في الحكم^(١١٤) .

الحواشي

- (١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (منشورات الأعلمي، بيروت، ١٩٧١)، ٣/١ .
- (٢) ابن خلدون، المصدر السابق، ٣/١؛ روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، مراجعة محمد توفيق حسين، (مكتبة المنى، بغداد، ١٩٦٣ م)، ص ٢٦ .
- (٣) الخبر عن البشر، (مصور القاهرة، تاريخ، رقم ٩٤٧)، ص ١١٦ .

- (٤) الإعلان بالتبويخ لمن ذم التاريخ، (نشر حسام الدين القدسي، دمشق، ١٣٤٩ هـ)، ص ١٧؛ روزنتال، المرجع السابق، ص ٢٦ - ٢٧.
- (٥) ترجمة عبدالحمد العبادي، ص ٨.
- (٦) روزنتال، المرجع السابق، ص ٢٦.
- (٧) هرنشو، علم التاريخ، ترجمه وعلق حواشيه وأضاف إليه فصلاً في التاريخ عند العرب عبدالحمد العبادي، (لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٤)، ص ١٥.
- (٨) روزنتال، المرجع السابق، ص ٢١؛ هرنشو، المرجع السابق، ص ٣٤.
- (٩) هرنشو، المرجع السابق، ص ٣٤.
- (١٠) دائرة المعارف الإسلامية (مادة جزيرة العرب)؛ روزنتال، المرجع السابق، ص ٢٣ - ٢٤.
- (١١) حكمت أبو زيد، التاريخ تعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر، (مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦١)، ص ٣٥٧، تصدير الجاحظ.
- (١٢) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، (دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٦)، ص ٧.
- (١٣) المقرئزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مطابع دار الشعب)، ص ٢؛ أبو زيد، المرجع السابق، ص ٣٥٩ (نقلًا عن أسلم حسن فهمي، ص ٧٦).
- (١٤) أبو زيد، المرجع السابق، ص ٣٢٩.
- (١٥) أبو زيد، المرجع السابق، ص ٣٣١ - ٣٣٢.
- (١٦) عبدالعزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، (المطبعة الكاثوليكية، بيروت)، ص ١٧.
- (١٧) الدوري، المرجع السابق، ص ١٧.
- (١٨) حسين نصار، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، (مكتبة النهضة المصرية)، ص ٥.
- (١٩) الدوري، المرجع السابق، ص ١٤ - ١٦؛ أبو زيد، المرجع السابق، ص ٢٣٢.
- (٢٠) الدوري، المرجع السابق، ص ١٤ - ١٥.
- (٢١) الدوري، المرجع السابق، ص ١٦؛ أبو زيد، المرجع السابق، ص ٢٣٢.
- (٢٢) حسين نصار، المرجع السابق، ص ٧.
- (٢٣) روزنتال، المرجع السابق، ص ٣٣.
- (٢٤) نصار، المرجع السابق، ص ٦.
- (٢٥) روزنتال، المرجع السابق، ص ٢٩.
- (٢٦) روزنتال، المرجع السابق، ص ٣٠.
- (٢٧) نصار، المرجع السابق، ص ٨؛ المدخل إلى التاريخ في التاريخ والمؤرخين منذ القدم حتى اليوم، تأليف مجموعة من أساتذة جامعة دمشق، ص ١٣٧.
- (٢٨) روزنتال، المرجع السابق، ص ٤١.
- (٢٩) روزنتال، المرجع السابق، ص ٣٩.
- (٣٠) أنظر: روزنتال، المرجع السابق، ص ٤٤ - ٤٥؛ وأنظر أيضاً: ابن المدبر، الرسالة العذراء في رسائل البلغاء، (طبعة محمد كرد علي)، ص ١٨٣.
- (٣١) روزنتال، المرجع السابق، ص ٤١ - ٤٢؛ عبد العزيز الدوري المرجع السابق، ص ١٨.
- (٣٢) سورة الروم، ١ - ٣.
- (٣٣) علم التاريخ عند العرب، ص ١٦ - ١٧.
- (٣٤) أبو زيد، المرجع السابق، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.
- (٣٥) الدوري، المرجع السابق، ص ١٩ - ٢٠؛ هرنشو، المرجع السابق، ص ٣٦ - ٣٧؛ نصار، المرجع السابق، ص ١٠.
- (٣٦) هرنشو، المرجع السابق، ص ٣٦؛ نصار، المرجع السابق، ص ٨؛ أبو زيد، المرجع السابق، ص ٢٣٧.
- (٣٧) نصار، المرجع السابق، ص ٨؛ المدخل إلى التاريخ، ص ١٧٧.
- (٣٨) أبو زيد، المرجع السابق، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.
- (٣٩) نصار، المرجع السابق، ص ٩؛ المدخل إلى التاريخ، ص ١٧٧؛ أبو زيد، المرجع السابق، ص ٣٤٧.
- (٤٠) مروج الذهب، ٥٢/٢.
- (٤١) هرنشو، المرجع السابق، ص ٣٦.
- (٤٢) أبو زيد، المرجع السابق، ص ٣٤٠.

- (٤٣) هرنشو، المرجع السابق، ص ٣٦ - ٣٧؛ نصار، المرجع السابق، ص ٩ - ١٠؛ المدخل إلى التاريخ، ص ١٧٩؛ أبو زيد، المرجع السابق، ص ٣٤١.
- (٤٤) أبو زيد، المرجع السابق، ص ٣٣٧؛ المدخل إلى التاريخ، ص ١٧٩ - ١٨٠.
- (٤٥) هرنشو: المرجع السابق، ص ٣٦ - المدخل إلى التاريخ، ص ١٨١ - ١٨٢.
- (٤٦) المدخل إلى التاريخ، ص ١٨٢ - ١٨٣.
- (٤٧) هرنشو، المرجع السابق، ص ٤٥.
- (٤٨) دائرة المعارف الإسلامية، مقال جب عن التاريخ.
- (٤٩) أحمد أمين، ضحى الإسلام، (مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة)، ٣٣٦/٢.
- (٥٠) المدخل إلى التاريخ، ص ١٨٦ (نقلا عن أحمد أمين).
- (٥١) انظر: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني، ٣/ ٢٧٠ - ٢٧٢.
- (٥٢) بيطار، دراسات في تاريخ الخلافة العباسية، (مطبوعات جامعة دمشق، ١٩٨٠)، ص ٣٢٢.
- (٥٣) المدخل إلى التاريخ، ص ١٥٩ - ١٦٠.
- (٥٤) هرنشو، المرجع السابق، ص ٣٩ - ٤٠.
- (٥٥) نصار، المرجع السابق، ص ٨.
- (٥٦) الحجرات، آية ٦.
- (٥٧) الطلاق، آية ٢.
- (٥٨) حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، (ط ٢، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥) ص ١٣٥.
- (٥٩) نصار، المرجع السابق، ص ٦٨ (تصدير جب).
- (٦٠) الزركلي، الأعلام، ١/ ٢٠٤؛ عبدالعزيز عزت، ابن مسكويه، فلسفته الأخلاقية ومصادرها، ص ١٠٥ - ١٠٦.
- (٦١) دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، (دار الثقافة، بيروت، ص ٢٦ - ٢٧).
- (٦٢) نصار، المرجع السابق، ص ٧٠.
- (٦٣) انظر مثلاً: الذهبي، تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحق، (تحقيق فنش)، ص ٧٢.
- (٦٤) المدخل إلى التاريخ، ص ١٦٨.
- (٦٥) المدخل إلى التاريخ، ص ١٦٧ - ١٦٨.
- (٦٦) المدخل إلى التاريخ، ص ١٦٨ - ١٦٩.
- (٦٧) هرنشو، المرجع السابق، ص ٤٣ - ٤٤؛ أبو زيد، المرجع السابق، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.
- (٦٨) أبو زيد، المرجع السابق، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.
- (٦٩) نصار، المرجع السابق، ص ٧٢.
- (٧٠) مرغليوث، دراسات عن المؤرخين العرب، ص ٣١ - ٣٢.
- (٧١) مرغليوث، المرجع السابق، ص ٣١ - ٣٣.
- (٧٢) هرنشو، المرجع السابق، ص ٤٤ (نقلا عن بيكل).
- (٧٣) انظر فيما سبق؛ وانظر: المدخل إلى التاريخ، ص ١٧١.
- (٧٤) المدخل إلى التاريخ، ص ١٧٢.
- (٧٥) هرنشو، المرجع السابق، ص ٤٤.
- (٧٦) المدخل إلى التاريخ، ص ١٣٨؛ أحمد أمين، ضحى الإسلام، ٢/ ٣١٩.
- (٧٧) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ٢/ ٣١٩.
- (٧٨) انظر فيما سبق.
- (٧٩) المرجع السابق، ٢/ ٣٢٠.
- (٨٠) ابن سعد، الطبقات، جزء ٣، قسم أول، ص ٢٦٢؛ نصار، المرجع السابق، ص ٢٧ - ٢٩.
- (٨١) ابن سعد، الطبقات، جزء ٥، ص ١٥٦.
- (٨٢) كشف الظنون، ٥/ ٦٤٦.
- (٨٣) نصار المرجع السابق، ص ٢٩ - ٣١.
- (٨٤) نصار، المرجع السابق، ص ٦٩؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، ٣/ ٣٦٦.

- (٨٥) المعارف، ص ٤٦٦.
- (٨٦) ابن هشام، السيرة، ٦٧/٢، ١٣/٤.
- (٨٧) انظر فون كريمر، مغازي الواقدي، ص ٤٣٨، والمقدمة ص ٢٣.
- (٨٨) انظر فون كريمر، المقدمة، ص ٥.
- (٨٩) نصار، المرجع السابق، ص ٤.
- (٩٠) نصار، المرجع السابق، ص ٥٤ - ٥٦.
- (٩١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٣٩٩/٦.
- (٩٢) ابن سلام، طبقات الشعراء، ص ٤؛ نصار المرجع السابق، ص ٦٤.
- (٩٣) نصار المرجع السابق، ص ١١.
- (٩٤) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ٤٣٦/٢ - ٣٤٧.
- (٩٥) اختلف في نسب دغفل واسمه، فهو في كتاب المدخل في التاريخ، ص ١٨٥ «الكناني»، وفي كتاب نصار، المرجع السابق، ص ١٣ «بكري»؛ وفي كتاب ضحى الإسلام لأحمد أمين، جزء ٢، ص ٣٤٧ «شيباني»؛ ولا خلاف في النسب الأخيرين لأن شيبان بطن من بكر.
- (٩٦) المدخل إلى التاريخ، ص ١٨٥.
- (٩٧) انظر: أحمد أمين، ضحى الاسلام، جزء ٢، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ (تصدير ابن النديم).
- (٩٨) أحمد أمين، المرجع السابق، ص ٣٤٩.
- (٩٩) المدخل إلى التاريخ، ص ١٨٥.
- (١٠٠) نصار، المرجع السابق، ص ١٤.
- (١٠١) ابن النديم، الفهرست، ص ١٣٧.
- (١٠٢) أحمد أمين، المرجع السابق، ص ٣٤٩.
- (١٠٣) المدخل إلى التاريخ، ص ١٥٩.
- (١٠٤) المدخل إلى التاريخ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.
- (١٠٥) المدخل إلى التاريخ، ص ٢٥٢.
- (١٠٦) المدخل إلى التاريخ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥.
- (١٠٧) المدخل إلى التاريخ، ص ٢٨٦ (نقلاً عن حاجي خليفة).
- (١٠٨) هرنشو، المرجع السابق، ص ٤٢.
- (١٠٩) نصار، المرجع السابق، ص ٧٢ - ٧٣.
- (١١٠) هرنشو، المرجع السابق، ص ٣١ - ٣٢.
- (١١١) مؤرخ وأخلاقي يوناني كتب تراجم عن مشهوري اليونان والرومان.
- (١١٢) فيلسوف وعالم باللاهوت إنكليزي، كتب عدة كتب في الدين والفلسفة، أهمها تاريخ فلسفة التاريخ.
- (١١٣) هرنشو، المرجع السابق، ص ٣٣.
- (١١٤) هرنشو، المرجع السابق، ص ٤٥.